الفصل الأول

خسوف الكتاب المقدس

وعصر حكم السيد الدنيوى الحكيم

عندما كُسرت شوكة البيوريتانيين، خرجت جديتهم وصرامتهم من طريق الحياة، وسادت فى القرن الثامن عشر نغمة الإحياء وما يميزها من ذكاء، مع ما يميز حكم تشارلز الثانى من عدم مبالاة. وبعد خمسين عامًا من الصرامة والجدية، قررت انجلترا - بمحض إرادتها - أن تستمتع بالراحة والدعة وتمتاز بأى شىء إلا الجدية.

ولكن البيوريتانية جرت من مرحلة إلى أخرى مثل النهر الجوفى، من القرن السابع عشر وحتى بزوغها مرة أخرى فى القرن التاسع عشر، بالرغم من محاولة عزلها عن الجامعات والكنيسة المعاد تأسيسها «re - Established Church»، ودواوين الحكومة والمجتمع، إلى حد الحرمان من الحقوق المدنية، وفى عصر الانشقاق فى القرن الثامن عشر، ظهرت الأرستقراطية بدلاً منها، وكان هذا العصر هو عصر «الأرستقراطية والحرية، وحكم القانون، وغياب الإصلاح» كما أسماه ترفيليان، عصر كلاسيكى بمعنى الكلمة من كل النواحى الأخلاقية والعقلية، وأبعد ما يكون عن العبرية.

ولو أردنا أن نؤرخ للقرن الثامن عشر، فيجب أن نكون فى حل من التاريخ الزمنى العادى؛ حيث إن القرن الثامن عشر يبدأ فعليًا من ١٦٦٠م إلى ١٧٨٠م، أى من فترة الإحياء وحتى فترة انتصار الثورة الأمريكية وبداية الثورة الفرنسية وبداية الثورة الصناعية باختراع آلة

النسيج على يد كارترايت والآلات التى تدار بالبخار على يد واتس. كان هذا العصر هو عصر المنطق والتفكير الحر. وبدأ فى ذلك الوقت تحدى العلوم للكتاب المقدس، فالجاذبية أسقطت التفاحة على رأس نيوتن وليس الرب، كما فتح چون لوك المجال للشك بمنطقه الفظيع. تحت ضغط هذه الأفكار الجديدة، ساح دور الكتاب المقدس كما تسيح قطع الزبد تحت لهيب الشمس، **وقد حاولت الربوبية أن تلعب دور الكتاب المقدس، وهى تعنى الإيمان بالله بدون ديانة، وقد قدم الربانيون إلهًا يستطيع كل ذى منطق أو عقل أن يؤمن به، وهو إله ثبت وجوده بكل الأدلة الخاصة بالطبيعة، والذى ليس فى حاجة إلى معجزات أنبياء أو أى قوى غير طبيعية أو خارقة ليثبت ذاته للبشر.**

وردًا على «البيوريتانية المخلصة بإزعاج»، عاد المزاج الهيلينى والذى جعل الرجال واضحى الرؤية ولكن غير مرتاحين لعدم إشباع حنينهم لسلطة قادرة على كل شىء. وعاد الحرمان الأخلاقى الذى لاحظه أرنولد فى عصر النهضة. وبينما سادت خشبة المسرح كوميديا عصر الإحياء، تُركت حكومة انجلترا فى أيدى عصابة من اللوردات بلا مبادئ. وكانت الثورة البيضاء التى أطاحت بآل ستيورات - إلى الأبد- عن العرش، وأتت بحقوق الإنسان كرد فعل عكسى ولكنها انطوت ببطء تحت درك أسفل من الأخلاقيات السياسية على يد «الچورچيون(*) الألمان - German Georges»، ويذكر وقتهم بفقاقيع

(*) من اسمهم چورج من السلالة الألمانية التى حكمت انجلترا.

الجنوب والمدن العفنة، وكانت ثرواتهم من تجارة الرقيق، وانشغل وزراؤها بالصراع على النفوذ تحت إمرة ملك نصف مجنون، إلى الحد الذى أعماهم عن خسران الإمبراطورية الأمريكية. وبالرغم من أن النقاد قد أطلقوا على هذا العهد لقب الأوجستانى(*)، إلا أنه كان أيضًا عصر السُكر والغش والدعارة. ويقول سويفت - الصوت الغاضب الوحيد فى ذلك الوقت -: إنه فى عالم الأجلاف تكون الكياسة والجمال مجرد أعراف ووجهات نظر.

أما فيما يختص بالديانة الرسمية فقد كان عصر الكنيسة العليا، والأدب والارتياح لخدمة هدف تقديم مناصبها الرفيعة إلى صغار النبلاء والأقارب المستحقين. وانتهت أيام الاستقلالية. وبقى نظام وشرعية كنيسة الدولة، وإن خلت من الروح، أفضل من فوضى عشرات التجمعات الدينية التى تحكم نفسها، وإن كانت مخلصة. ولم يكن للكتاب المقدس حظ فى كنيسة صورت چين أستن حارسها فى صورة «السيد كولينز». فقد كان رجال العهد الجديد والقديم، مثل البيوريتانيين، متطرفين. ولا يوجد شخص مريح أو وديع بينهم. وفى انجلترا القرن الثامن عشر لم يستطع غضب الأنبياء المقدس أن يخترق ما أسماه «چيبون - Gibbon» «نعاس الكنيسة الثقيل».

ولكن تيارًا قويًا من الحماس والاشتياق إلى التقويم الأخلاقى كان

(*) كعهد أول إمبراطور رومانى: أوجستس.

يسرى تحت سطح القرن الثامن عشر الدنيوى. وكانت ميثودية وترنيم «الإخوان ويسلى - The Wesley Brothers» نتاج الزمن، إذ كان من طبقة مختلفة بقدر ما كانت خطابات اللورد تشستر فيلد لابنه، ومن الصعب الوصول إلى أى تعميم بشأن فترة تضمنت فى بدايتها «رحلة الحاج» لـ «بنيان» (Bunyan's Pilgrim's Progress) وفى نهايتها «الانحدار والسقوط» لجيبون (Gibbon's: Decline and Fall) وهما كتابان من أفضل الكتب على مر العصور. ويمثل جيبون المتشكك العالم غير المسيحى، بينما يمثل بنيان المؤمن المتحمس رسول الفضيلة، أحدهما المعرفة والآخر الإيمان، أو كما يقول أرنولد «أحدهما هيلينى والآخر عبرانى». **ويعد «رحلة الحاج» أشهر كتاب مقروء فى الإنجليزية بعد الكتاب المقدس، وقد كان بالفعل بمثابة كتاب مقدس ثان، فى الكوخ إن لم يكن فى القصر. فقد تجاهلته الطبقة المتعلمة، ولكنه فى نهاية الأمر أثبت أنه كما يقول ماكولاى عنه: «الكتاب الوحيد الذى اجتمع عليه رأى الأقلية المتعلمة والعامة»**. ومن المثير للعجب أن يظهر مثل هذا الكتاب الدينى فى نفس العقد الذى ظهرت فيه كتب من أشد الكتب تجديفًا كزوجة ريفية لويتشرلى (Wycherley's Country Wife)، والسمسار البسيط (Plain Dealer) لنفس المؤلف. وبالرغم من انتماء بنيان للجيل البيوريتانى القديم، إلا أن كتابه ينتمى لأجيال تالية كانت تحبه وتعيشه، فقد كان وريث البيوريتانيين وجد الميثوديين - الجسر الذى حمل البيوريتانية إلى الصحوة الإيفانجليكية (Evangelical) فى القرن التاسع عشر.

ولكن بينما قرأ العامة بحماس عن رحلة كريستيان إلى البوابة المقدسة، كان الرجل الدنيوى الحكيم هو الذى يسود البلاد فى ذلك الوقت، وكان غير مهتم بقدوم المسيح الذى طالما شغل البيوريتانيين، وبالتالى لم يكن مهتمًا باستعادة إسرائيل واليهود. **وكان مظهر الاهتمام الوحيد باليهود فى القرن الثامن عشر هو العداء الذى أثاره قانون التجنيس تجاههم فى عام ١٧٥٣م، وكما كان يسمى بـ «قانون اليهود»، فقد كان يتيح لليهود تقديم طلبات تجنيس فى البرلمان دون أن يتناولوا القربان المقدس. وقد حذر أحد المعارضين من أن تمليك الأراضى لليهود سيكذب نبوءة العهد الجديد، والتى طبقًا لترجمة المسيحيين تقول بأنه يجب أن يظل اليهود فى التيه حتى يعترفوا بيسوع المسيح. وقال آخر بأنه لا يوجد ما يضمن أن تظل المسيحية هى الدين السائد إن تملك اليهود جزءًا كبيرًا من الأرض. وبالرغم من ذلك فقد أُقر القانون بواسطة مجلس العموم وبإجازة الأساقفة، وأقره مجلس اللوردات، ولكنه قُوبل باحتجاج صاخب من كتّاب المنشورات والعامة حتى ألغى ولم يعد تطبيقه إلا مع قانون التحرير عام ١٨٥٨م بعد قرابة المائة عام.**

ويعكس التطبيق الأولى للقانون، بغض النظر عن إلغائه، الروح السامية للتنوير فى القرن الثامن عشر، روح: عش ودع غيرك يعيش، وفى ذات الوقت كانت روح العقلانية تعمل على تحقيق النبوءة، مما أدى للتفكير فى استعادة إسرائيل. وتبين الكتّاب العقلانيون الذين

كتبوا عن الدين مثل «هوبس - Hobbes»، و«هيوم - Hume»، حين اختبروا أسس المسيحية الواحد تلو الآخر، أن التفسيرات الرمزية التى جعلت من يسوع المسيح تحقيق نبوءات المسيح اليهودى المنتظر، غير عقلانية، وأن تلبيس سطور العهد القديم رموز مسيحية لأحداث ستقع بعد مئات السنين فى الكنيسة المسيحية غير مقبول عقلانيًا، وفى كتابه «كلام الفكر الحر - Discourse of Free Thinking» كتب «أنتونى كولينز - Anthony Collins» عام ١٧١٣م يقول: إن كتاب دانيال لم يكتبه دانيال وإنما أُلّف فى العصر المكابى، ويضفى هذا التفسير شكلاً جديداً تمامًا على نبوءات دانيال، ووصل بعض المفكرين الخطيرين أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة (التوراة)، وكلما زادت الدراسات وتعمقت، كلما اضطروا للاقتناع بأن الأمل المسيحى فى القدوم الثانى للمسيح، هو أمل بلا جدوى، طالما اعتمد على نبوءات عبرية.

وبينما ساد المنطق العقلانى، اضمحل الأمل فى استعادة اليهود إلى جبل صهيون. وبالرغم من ذلك فقد اهتم العقلانيون بدولة فلسطين كمهد للكتاب المقدس، وبدأوا فى دراسة أطلالها ليس كبقايا أثرية، وإنما كمرآة تعكس الحياة القديمة. ومن أوائل الباحثين فى فلسطين كان «د. فولر - Dr. Fuller» الذى ألّف كتابه «مشاهد من فلسطين» والذى - بالرغم من نشره فى عام ١٦٥٠م - لم يكن له أية علاقة بالپيوريتانيين وإنما بالمكابيين. فما كان پيوريتانيًا ليكتب عن الأرض المقدسة بهذا التجرد.

ويختلف فولر عن بنى عصره بروح الدعابة الجيدة وعدم التحيز، حتى فى أيام الحرب الأهلية. ويقول عن هدفه فى الكتابة عن فلسطين: إنه للمساهمة فى فهم الكتاب المقدس. ويصف الحياة الحيوانية والنباتية والمصادر المعدنية والخصائص الجغرافية للأرض، ويصحح المعتقدات الخاطئة الشائعة، **ويختم كتابه بفصل يجادل أمل اليهود فى العودة، قائلاً بأن عودتهم من النفى البابلى كانت آخر النبوءات وقد تحققت، ولا يتبقى أى وعد لهم إلا بالتحول للمسيحية وليس استعادة مؤقتة لبلدهم القديم. ويؤكد أن ذلك يجب أن يبقى حلمًا.** أما بخصوص التحول للمسيحية، فغير مؤكد إن كان الله يريد ذلك، ولكن بما أنه لا توجد أدلة عكسية فلا مانع من الاعتقاد بأن الله يريده، ولذا فهو متأكد من اختفاء كل العقبات إن أراد الرب أن يفتح أعينهم لنور الإيمان فى طرفة عين. ولكنه يؤكد أنه طالما يستبعد المسيحيون اليهود من المجتمع فلن يحدث هذا التحول، فيجب التحاور قبل تحويلهم.

ويوجد كتاب آخر شهير وهو «رحلتان إلى أورشليم - Two Jour-neys to Jersualesm» لمؤلفه ناثانيال كراوتش عام ١٧٠٤م وهو ناشر سلسلة تاريخية يقول عنها د. چونسون: إنها مناسبة لجذب القرّاء الرجعيين. وبالإضافة لمذكرات المسافرين فقد تضمن الكتاب مذكرات قيمة عن حال الدولة اليهودية القديمة والحديثة، مثل سرد «صموئيل برت - Samuel Brett» لمجلس اليهود فى المجر، رواية عن «الوهم

الرائع» لليهود: و«وهم اليهود: ساباتاى زيفى»، ونقاش المجلس حول عرض ماناسح فى ١٦٦٥م. كما تضمن مغامرات هنرى تمبرلاك المذكورة فى الفصل السادس، ومذكرات رحلة ١٤ إنجليزيًا عام ١٦٦٩م والتى ظهرت أولاً عام ١٦٨٣م. وكان للمجموعة جمهور ثابت حيث أعيد نشرها حتى إنها نشرت بلغة ويلز عبر القرون التالية، وكانت آخر طبعة عام ١٧٩٦م.

وكتب كراوتش «الملاحظات الجديرة بالتذكر» تحت اسم روبرت برتون، وحاول الإجابة عن السؤال المحير عن فلسطين: **«كيف يمكن أن ينبت بلد عقيم مثل فلسطين كل هذه الشعوب المزدهرة فى عصور الكتاب المقدس والعصر الرومانى والبيزنطى؟»**.

***